

دلالة المحاوراة الأفلاطونية في تجربة الفهم عند "غادامير" (دراسة تحليلية نقدية)

رحلي جميلة*

- قسم الفلسفة، كلية العلوم الاجتماعية، جامعة وهران 2
- رسالة ماجستير في الفلسفة الألمانية المعاصرة
- إعداد الباحثة: "رحلي جميلة"
- إشراف: د. بلحاج نجاة
- تاريخ المناقشة: ماي 2015

اهتمّ البحث الفلسفيّ - باعتباره تأملًا فكريًا شاملاً - بمحاولة فهم الواقع وتفسيره، والسعي في الوقت ذاته لتغييره، وذلك بُغية الارتقاء بالطبيعة الإنسانية. ولأجل هذا، فكّرت الفلسفة في الأسلوب المناسب لضمان تحقيق هذا الهدف، فاعتمدت على الحوار واعتبرته من الشروط الأساسية، ومن أكثر الأساليب الملائمة لإنتاج المعرفة، وأحيانًا أخرى، لإعادة صياغتها، وهذا يعني أنه أحد الطرق التي أبرز بها الفلاسفة أفكارهم. فقد اعتدّه الفيلسوف اليوناني "أفلاطون" (427-343 ق.م) Platon كما هو معروف في محاوراته - ووصفه باختصار: "منهجًا عامًا للتفكير الفلسفي".

رؤية قديمة كهذه، باحثة في طبيعة الحقيقة من خلال هذا الأسلوب -الحوار- دعت الفيلسوف الألماني "هانز جورج غادامير" (1900-2002) Hans-Georg Gadamer، على الرغم من مُعطيات عصره، -عصر التطورات التقنية- إلى عدم التخلي عن الموضوعة الأساسية، وهي البداية، بداية الفلسفة اليونانية التي أصبحت بهذا الشكل تلامس بمشكلاتها مشكلات الثقافة الغربية الراهنة؛ وقد وجد في الحوار -الأفلاطوني- نموذجًا لتأكيد فرضياته هذه، وهذا يدل على أن "غادامير" يرى أنه ليس من المنصف أن ننظر إلى الماضي على أنه اندثر وانتهى أمره، فقد ساهم الإغريق بكل ما أتاحته لهم إمكانات عصرهم الذي عاشوا فيه، بوضع لبنة صالحة في كل مجالات المعرفة، ومن ثمة، فإن كل أمة تودّ أن تستغل الدرس والعبرة، عليها أن تهتمّ بنتائج هؤلاء المفكرين اهتمامًا جادًا.

وقد تطور هذا العصر بشكل مُذهل، وتجاوز تأثير التقنية على الحياة الإنسانية كل الحدود، وقد لا تُبالغ إن قلنا، إنه لم يقتصر على حاضر هذا الإنسان، وإنما امتدّ إلى مصير الأجيال، وهذا يعني أننا بحاجة إلى طرح الأسئلة الكبرى من جديد لفهم واقع الإنسان ووضعه في هذا الوجود، وبالتالي العمل بمنظار العقل المنفتح على الذات والعالم على السواء، هذا الذي دفعنا إلى التأمل قليلًا في وضع الفلسفة الألمانية المعاصرة الذي جعل "غادامير" يتجه إلى منحى مُغاير لذاك الذي يفرضه عصره، والوقوف بعيدا عن تأثير أقرانه من الفلاسفة بتطوراتهم.

*- طالبة دكتوراه بجامعة وهران 02.

لأجل هذا، اشتدّ سعينا من وراء هذا العمل المتواضع، للاهتمام مع "غادامير" بواقع هذا الاختلاف، والبحث في طبيعة هذا التحول، وحرصنا بالمثل على تجسيد هذا الاهتمام في بحثنا الأكاديمي الذي وسمناه بـ: "دلالة المحاور الأفلاطونية في تجربة الفهم عند "غادامير".

وتبعاً لذلك، يُمكننا طرح الإشكالية التالية: ما قيمة المشروع الحواري الذي اعتده "غادامير" في فلسفته التأويلية، حين استقر في بنائه على العودة إلى المحاور الأفلاطونية؟

ولما كان اختيارنا لهذا البحث من قبيل الفضول العلمي، فقد انطلقنا من أسئلة مُهمّة باتت تراودنا، ونظن أنها تُراود أي إنسان يطلع على عنوان هذا البحث بغض النظر إذا ما كان هذا الإنسان باحثاً أم لا، وهي: ما معنى العودة إلى بداية الفلسفة، وما علاقتها بمحاضرها؟ وبالتالي، ما الذي وجده "غادامير" في منهج "أفلاطون" والذي أحاله إلى هذه العودة. هل يكفي أسلوب الحوار أو المحاور ليكون مشروعاً مُكتملاً لعملية الفهم في حد ذاتها، أو على الأرجح حلاً جيداً لإشكالية الأصالة والمعاصرة في زمن التقنية وتطوراتها؟

وعلى هذا الأساس يُمكن أن تبحث رسالتنا عن الفرضيات الآتية:

- أهمية "أفلاطون" بوصفه موضوعاً للتفكير التأويلي، ولدى أسلوبه الحواري أفضل علاج لإنسان اليوم الذي يواجه تطورات الآلة.
- النظر في التراث، يحتاج إلى الفهم هذا الأخير الذي يتطلب المساءلة التي قد تقضي على أحادية التفكير، ومن ثمة تستدعي التواصل مع الآخر.

هيكُل البحث:

إلى جانب مقدمة البحث التي أبجدناها، تضمّنّت المذكرة فصولاً ثلاثة، وخاتمة. بالنسبة للفصول، نوجز محتواه كالآتي:

الفصل الأول: والذي عَناونه بـ: "الحوار الأفلاطوني والتأسيس الغاداميري للتأويلية الألمانية المعاصرة"، والمشتمل على مبحثين، شكلاً مُجمّعين، القراءة التأويلية التي أخضعها "غادامير" لطبيعة المحاور الأفلاطونية، وبالتالي أهمية الأسلوب الحواري منها، لذلك عرّفنا بخصوصيات الحوار لدى هذا الفيلسوف، ومدى أهميته، ثم أوضحنا بيان احتياجنا لهرمينوطيقاً "غادامير" في شكلها الحواري، فعمدنا إلى إيضاحها، كما قُمتنا بإبراز البعض من ملامح التأويلية الألمانية قبل "غادامير"، وكيف كانت نقطة أساسية في بدء مشروع هذا الفيلسوف، والتي لم تتوقف عندها طويلاً، فضرورتها كانت فقط لتبرير أسس التأويل الغاداميري مقارنةً بهؤلاء، بالإضافة إلى أن طابع مذكرتنا لا يهتم بالجانب التأويلي، بقدر اهتمامه بقيمة الأسلوب الحواري.

في حين، تحدث الفصل الثاني عن: "أهمية الحوار للمشروع التأويلي المعاصر عند "غادامير"، والذي لم يخل من مباحث تفصيلية، وهي اثنان أيضاً، ولعلّ من المفيد القول، إن هذا الفصل هو أكثر

الفصول دقة نظرا لتناوله للمساحة الكافية التي خصصها "غادامير" لضرورة المحاورة في حياتنا، بعيدا عن ثقافة المنفعة والانبهار اللذين تفرضها الحياة المعاصرة، فحدّدتنا مفهومه للحوار على غرار المفهوم الأفلاطوني، وأهم سياته بالإضافة إلى علاقته بالفهم والاطلاع على أهم الوسائل المساعدة لتحقيق قيمة هذه التجربة، ومن ذلك مُجمل الإمكانيات التي تتيحها هذه الأخيرة وتبعث الإبداع فيها.

أما الفصل الثالث فهو مرحلة تقييمية لمشروع البحث، وعنوانه: "توجيه النقد لمشروعية الحوار ضمن الواقع الراهن للفلسفة"، وخلافاً للفصلين السابقين، حاولنا معرفة كيف يكون الحوار تبعاً لما تقدم، كآلية حل إشكالية الأصالة والمعاصرة، لهذا تطرقنا لجملة النقاشات التي حصلت بين "غادامير" وبعض الفلاسفة المعاصرين له، ومدى قبوله أو رفضه لأفكار هؤلاء، كما لم نكتف بهذا القدر فأضفنا مُجمل الآثار التي يتركها الأسلوب الحواري على حياة الأنا والآخر توطيدا لحقيقة المشاركة الاجتماعية، ومن ثم تحقيق التواصل المطلوب في هذه الحياة، علاوة على قيمة المشروع الحواري لدى "غادامير" وأهم حُججه بهذا الصدد دفاعا منا عن أهمية الأطروحة التي تبنيها بالبحث، ومدى انفتاحها وتجديدها وعدم انغلاقها.

وأما خاتمة، فقد تضمنت أهم نتائج البحث وآفاقه، محاولة منا لحل الإشكالية المطروحة.

- منهج البحث

استنادا لهذه الهيكلية، ونظرا لطبيعتها، اعتمدنا على المنهج التحليلي المناسب للموضوع، وهو منهج الفلسفة بحد ذاتها، فقمنا بتحليل وتبسيط الأفكار الرئيسة المكونة لهذه الدراسة وما تنطوي عليه من عناصر جزئية، ليتسنى لنا بعد ذلك إدراك العلاقات الكامنة بينها، ومنه لأجل دراسة المحاورات الأفلاطونية تحليلًا لطبيعة الحوار، ومدى تأثير هذه الطبيعة في منهج "غادامير" التأويلي، أو في تجربة الفهم لديه. غير أن هذه الأفكار كانت بحاجة إلى محكات نقدية متعددة قادرة على بيان العمق الفكري لفلسفة "غادامير"، ولكي نحاول في الوقت نفسه إرساء هذا العمق كإضافة جديدة بالاهتمام في عالم الفلسفة المعرفي الذي يزداد في كل لحظة. حتى وإن كان هذا النقد يشتمل على جملة من السلبيات التي قد تعترض مشروع "غادامير" الحواري.

- نتائج البحث

يُمكننا القول، إن آمال "غادامير" قد جاءت لأجل تعزيز بصيرة الحياة التي أضحي يهددها النسيان في عصر التغيير السريع، لأن الأشياء التي تتغير تفرض نفسها علينا أكثر من تلك الأشياء التي تظل كما هي، ومن هنا، فإن المنظورات التي نجمت عن تجربة التغير التاريخي تتهدد دائما لأنها تنسى ما يظل غير مرئي، وما ظل غير مرئي هو تجارب السابقين علينا لنا كان لزاما علينا أن نتذكرها، وفي تذكرها أعلن "غادامير" عن مشروعه الحواري الذي سبق وأن بيناه، وأما أهم نتائجها فهي على الشاكلة الآتية:

- استنتج "غادامير" أن فن التأويل يجب أن يكون عودة إلى البدايات الأولى، هذه البدايات التي ستقضي على الاستعمالات غير الوجيهة، لفهم المعاني، ومنه القضاء على التحديدات التي تفرضها عادات الفكر المترنخة للضمي قديماً نحو الأشياء نفسها على شكل حوار بين الماضي والحاضر؛ لهذا نبعت أهمية "غادامير" من سعيه إلى استخلاص الأبعاد للتشابكة ضمن المفهوم الفلسفي للعقل فُهماً وتفتُحاً على خبرات جديدة في التواصل مع العالم، إن المهمة التي أوكل "غادامير" نفسه لتحقيقها كانت محاولة تمثل الماضي والعمل على إعادة بلورة التراث الغربي كُله لتقييمه، أو بمعنى أدق، لإعادة تأويله. والفهم هو الإجراء الوحيد والأساسي الكفيل بإجراء هذه الوساطة على اعتبار أنه الخاصية الأصلية لوجود الحياة الإنسانية، فُهم يُدل بذاته على أولوية الحوار ومنه على بنية السؤال والجواب.

- أحتكم "غادامير" في هذه الأهمية إلى "أفلاطون" الذي قد أتم هدم الألفاظ المتحجرة وقكك تلك المحتويات التي فقدت طاقة اندماجها، هذا الفيلسوف اليوناني الذي أظهر الظاهرة التأويلية، وأبرز مكانة السؤال فيها، وبين لنا بالمقابل في محاوراته حوارات أصيلة، وجعل أسبقية السؤال في كل معرفة وخطاب، "أفلاطون" الذي لم يكتب نصوصاً جازمة وإنما حوارات حية -فما عبر عنه "غادامير"- حوارات نحن بحاجة لها، لا تكراراً للموروث القديم، وإنما لمساءلته، لأجل تحقيق التواصل بين الناس لغوياً أو جدلياً... المهم أن يتحقق الفهم المنشود.

- وجد "غادامير" إذاً في تأسيسه للتأويلية في شكلها الألماني المعاصر، عودة وجيزة وضرورية لجملة من المرجعيات المساعدة، فأعتقد أن المهمة التي اضطلع بها "شلايرماخر" كانت في إجراء الفهم، ثم إن الحاجة إلى الفهم ذاته تظهر متى أخذ سوء الفهم بالحسبان، كما أنه وجد في "دلتي" نموذج الفهم من مدلول روحي تاريخي، إذ فمن خلال حدث الفهم تنكشف الحياة في أعماقها، أما طبيعة تأويل الأشياء لدى "هوسرل" فقد تمثلت في هدف أساسي ووحيد هو بُغية فهمها ومعرفة كمها على أحسن الأحوال، للتعرف على بنية التأويلات القصدية، وعلى كل ما هو ماهوي حقيقي في ظاهرة ما؛ في الوقت ذاته الذي جاء فيه الفهم عند "هيدجر" عبارة عن دلالة أنطولوجية عن كينونة مُلقاة في العالم، حيث الفهم طريقة من طرق الكينونة، طريقة هذا الكائن الذي يوجد وهو يفهم.

- بذلك الطموح جعل "غادامير" علاقة السؤال بالحوار فناً لقراءة ماضٍ نحتاج لإعادة نظر لفهمه وتسديد نقائصه والكشف عما يُخبئته من إمكانيات في ثنياه، إمكانيات ستكون ثغراً لحاضر يحتاج للتطور، لأن للتاريخ مفاعيل لا تنفك عن التأثير في مجريات الحاضر. لهذا كان من الضروري أن تكون أيُّ استعادة للتراث استعادة تأويلية، تأخذ بعين الاعتبار الطابع الشمولي للتجربة الإنسانية عبر الزمن. كما وصف "غادامير" الطريقة التي يحدث فيها الفهم سواءً في حالة النص أو الحوار مع شخص آخر، هي أن يحدث في لغة الشيء نفسه ببساطة، لأن الوجود الذي يُمكن أن يُفهم هو اللغة، ومن خلالها يظهر الفهم كإبراز لرأي الآخر، وإدراكه في وجوده من خلال الحوار دائماً، حيث تنفتح الذات على الموضوع أو الأنا على الآخر بهدف الوصول إلى اتفاق، أي شيء مشترك نشعر معه بالألفة، ففائدة الحوار تتمثل في ذلك الجهد المستمر لتجاوز أي شكل من أشكال الاعترا ب وتوحيد الأشخاص معاً، حيث يتفاعل المتحاورون ويتحقق التضامن بينهم.

- أما الحوار الذي جرى بين "غادامير" و"دريدا"، بين الهرمينوطيقا والتفكيك قد أسفر في النهاية على وصف التأويل الغاداميري بالدقة في تفهّم الأشياء بين البدايات التأسيسية والنهايات المصيرية، وحتى في الحوار المقابل بينه وبين "هابرماس"، فهذا الأخير لم يتغاضّ هو الآخر عن الحوار التأويلي، حتى وإن اتهم "غادامير" بالفيلسوف المحافظ حين اهتم بالتراث وكفى، في الوقت الذي يبين له فيه "غادامير" أن التراث لم يكن سوى جزء من حياة التاريخ ككل التي درسها، وحتى الحوار لم يكن يوما لدى "غادامير" حقيقة مغلقة ونهائية. وعلى سيرة الانفتاح وعدم الانغلاق، جعل "غادامير" مشروعه الحواري دائم المراجعة والتجدّد، أما حقيقة الفهم، فهي مشاركة لا امتلاك، إنتاج المعاني، لا السيطرة عليها، وهذا لأن الفهم في مواجهة دائمة مع اللافهم، لذلك كشف لنا جدل السؤال والإجابة عن أن نهاية أي حوار هي بداية جديدة لحوار آخر، حوار يتساءل عما وراء المفاهيم المتحجرة، وهذا ما يجب أن يكون عليه الفهم الإنساني في شكله التواصلّي.

وعلى سبيل الإجمال، يمكننا القول، إن "غادامير" قد أثّر إنتاجاً فكرياً متنوعاً، لا يعاني من إشكالية التكرار، هذا النتاج الفكري الذي لازال يفتح الآفاق للبحث والدرس نظراً لحاجة المجتمع الإنساني بأسره للتواصل، في زمن سيطرة فيه قوى الآلة وتحكمت من خلالها في مصيره، وغيّبت سبل ارتباط ماضيه بحاضره ومستقبله أيضاً، مشروع أثبت من خلاله مقدّته على الاستجابة للتطورات المعاصرة، كما جسّدت وعيه الكامل بطبيعة العصر الذي عاش فيه.